

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

تتمة قصة كعب " قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ وَهُوَ يَبْرِقُ وَجْهُهُ مِنْ السَّرُورِ...".

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلا زلنا في حديث كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه- في ذكر توبة الله عليه حينما تخلف عن غزوة تبوك.

يقول كعب: فلما سلمت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أي: بعدما رجعت من تبوك، وجلس للناس في المسجد، قال: وهو يبرق وجهه من السرور، وهذه عادته -عليه الصلاة والسلام-، كان أصحابه يعرفون ذلك بوجهه، فكان إذا سر استتار وجهه -صلى الله عليه وسلم- حتى كأنه فلقة قمر.

فقال: ((أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك)) وهذا يدل على رافة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولطفه، وأنه يعيش مع أصحابه بمشاعره -عليه الصلاة والسلام-، فيسر لما فيه نفعهم، ومصلحتهم، ويغتم -عليه الصلاة والسلام- إذا حصل لأحد منهم شيء من المكاره.

وهذا يدل أيضا على مشروعية البشارة، ويدل على أن ذلك اليوم أفضل يوم على الإطلاق، فهل هو أفضل من يوم إسلامه، ومعلوم أن الله -عز وجل- ما أنعم على عبد نعمة أعظم من نعمة الإسلام والهداية لهذا الدين، فكيف قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك))؟

يمكن أن يقال: إن هذا اليوم مكمل ليوم إسلامه؛ لأن يوم إسلامه إنما هو يوم توبة مما كان يتعاطاه من الشرك والبعد عن الطريق المستقيم، والتوبة مكملة له؛ لأن الإخلال بسلك الطريق إنما هو خروج عن إسلام الوجه لله -تبارك وتعالى-، فإن تمام إسلام الوجه: أن ينقاد العبد انقياداً، فإذا حصل له شيء من الخطل والشطط والانحراف فإن جبر ذلك يكون بالتوبة، وتكون متممة لإسلامه، ولهذا نجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: في كل يوم أجدد إسلامي، بمعنى: أنه يراجع نفسه، ويحاسبها، ويتوب إلى الله -عز وجل-، وينظر في سلوكه وعمله، وحاله مع الله -عز وجل-، فيرى أنه في حال غير مرضية، فلم يرضَ عن نفسه وهو شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، فيقول ذلك للذين مدحوه، وأثنوا عليه، وأطروه: أنا في كل يوم أجدد إسلامي.

يقول: "فقلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ هل هذه التوبة والعفو هو شيء منك، مبتدأ منك يا رسول الله، أم أنه شيء تفضل الله -عز وجل- به وأوحى به إليك؟ فقال: ((لا، بل من عند الله -عز وجل-))."

"وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا سر استتار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر" بعض العلماء يقول: "لأن بعض القمر فيه سواد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أبهى وأجمل، وفي حديث جابر بن سمرة

رضي الله عنه- أنه قال: رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- في ليلة أضحيان، وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه، وإلى القمر، فلهو كان أحسن في عيني من القمر (1).

فبعض أهل العلم يقول: القمر فيه هذا السواد، فلا يشبهه به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإنما يشبهه ببعضه المستنير، فهذا أكمل، والعرب تشبه الشيء بقطعة القمر للدلالة على إضاءته، وإشراقه، واستناره، وبهائه، تقول: فلان قطعة قمر، كأن وجهه قطعة قمر، وهذا هو المراد، والله تعالى أعلم. يقول: وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة.

أنخلع، يعني: أن أخرج من مالي، ويعني بذلك: كل ما أعطاه الله -عز وجل- من الأموال بجميع أنواعها، لأن "مال" مفرد أضيف إلى الياء، فهذا للعموم.

أن أنخلع من مالي: من كل مالي، وهذا يدل على أنه قد أقر ذلك وبذله وفعله، لكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك)).

والنبي -صلى الله عليه وسلم- نهاه عن ذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- نهى سعدا -رضي الله عنه- أن يتصدق بأكثر من الثلث في حجة الوداع (2).

وكنت أشرت إلى مسألة، هل يكون التبذير والإسراف والتوسع في النفقة في سبيل الله -عز وجل- أو لا؟ لماذا النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى كعب بن مالك، ونهى سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنهم-؟ وجاءه رجل بقطعة من ذهب صدقة، فأعرض عنه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعرضها عليه، فأعرض عنه، ثم عرضها فأخذها النبي -صلى الله عليه وسلم- ورمها بها، كأنه مغضب، وقال: ((يأتي أحدكم بماله ثم يتكف الناس)) (3).

وأبو بكر -رضي الله عنه- جاء بكل ماله، فسأله النبي -صلى الله عليه وسلم- ماذا تركت لأهلك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله، وعمر جاء بنصف المال، فقبل ذلك منه النبي -صلى الله عليه وسلم- (4).

1 - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (150/2)، رقم: (1417)

2 - أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكفوا الناس (1006/3)، رقم: (2591)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (1250/3)، رقم: (1628).

3 - أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة عن ظهر غني يفضل عن يعول المتصدق (98/4)،

رقم: (2441)، وأبو يعلى (65/4)، رقم: (2084)، والدارمي (479/1)، رقم: (1659)

4 - أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة (54/2)، رقم: (1680)، والترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، في مناقب أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- كليهما (614/5)، رقم: (3675)، عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك ما لا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر -إن سبقته يوماً-، فجئت بنصف مالي فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أبقيت لأهلك؟)). قلت مثله.

قال وأتى أبو بكر -رضي الله عنه- بكل ما عنده، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أبقيت لأهلك؟))، قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسألك إلى شيء أبداً.

والله - عز وجل - يقول: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}** [الفرقان: 67]، ويقول: **{وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}** [الإسراء: 29].

فلماذا قبل النبي - صلى الله عليه وسلم - من أبي بكر وعمر، ولم يقبل من كعب وذلك الرجل؟ الجواب: هو ما ذكره الشاطبي، وبعض المحققين بأن ذلك يختلف باختلاف الناس، فمن الناس من يكون بمنزلة أبي بكر وعمر، وثقته بالله عظيمة جداً، وتوكله عليه بأكمل الأحوال، فمثل هذا لا يُمنع أن يتصدق بكل ماله، فيُقر على هذا، ومن الناس من يكون دونهم في المرتبة، فيمنع من ذلك؛ لئلا يتلفت قلبه إلى الناس، أو ينتظر من أحد كرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، أو غير النبي - عليه الصلاة والسلام - أن يعطيه من بيت المال أو من غير ذلك.

فالمقصود أن هذا لا يحكم فيه بحكم واحد، فمن الناس من يقال له كذا، ومن الناس من يقال له كذا، بحسب معرفته بحالهم، كما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حينما يسأله رجل يقول: أوصني، فيقول له: **{(لا تغضب)}**⁽⁵⁾، فكان - صلى الله عليه وسلم - يجيب كل واحد على حسب حاله.

ويشرع للإنسان في حال الإساءة أن يبذل شيئاً من الإحسان والمعروف، ليقابل ذلك، كما قال الله - عز وجل -: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ}** [هود: 114]، وذلك في خبر الرجل كما في حديث معاذ وغيره لما قبل امرأة، ووقع منه بعض ما لا يليق معها، إلا أنه لم يقارف ما يوجب الحد، فسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزل - عز وجل - هذه الآية⁽⁶⁾.

فهذا يدل على أن الإنسان إذا وقع منه تقصير وإساءة فإنه ينبغي أن يعرض ذلك بألوان من الإحسان، وكان ابن عمر - رضي الله عنه - إذا فاته ورده من الليل يصوم ذلك اليوم الذي يليه؛ ليعرض هذا النقص الذي وقع عنده، وهكذا نقل عن جماعة من السلف، أحدهم جعل على نفسه أنه إذا اغتاب إنساناً أن يصوم يوماً، وهو معتاد على الصيام، فلم ينقطع عن الغيبة، يقول: فجعلت على نفسي إذا اغتابت إنساناً أن أتصدق بدرهم، والمال حبيب إلى النفوس، فترك الغيبة، فيمكن للإنسان أن يحمل نفسه على طاعة الله - عز وجل -، ويردها عن المعصية بهذه الطريقة.

هذا، وأسأل الله - عز وجل - أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه.

⁵ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (2267/5)، رقم: (5765).

⁶ - أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة هود (1727/4)، رقم: (4410).